

تعريف بالمباني الموجودة داخل قلعة المدينة

أولاً المدارس:

خارج باب الرحمة ، توجد مدرسة سيف الدين سلطان ، وقد كُتِبَ على بابها الآية الكريمة ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها...﴾ وتحت الآية (أمر بعمارة هذه المدرسة المباركة الأمير الكبير المحتاج إلى عفوره الرحمن مالك الأمر سيف الدين خوبان ، والخاتون المعظمة سنة أربع وعشرين وسبعمائة ٧٢٤ ...).

وبجوار هذه المدرسة تماماً مدرسة السلطان قايتباي . وخارج باب جبريل توجد مدرسة صوقوللي محمد باشا^(١) . وبالقرب من باب السلام يوجد مبنى الوقف الكبير للسلطان محمد الثالث^(٢) . وهناك بالتمام والكمال مائة وثمان عشرة مدرسة .

ويقع داخل القلعة حمامات^(٣) ، وبضع خانات^(٤) . وشوارع المدينة داخل القلعة ذات أرصفة بيضاء ، نظيفة جداً ، ودائماً ما تُرَشُّ هذه الشوارع والطرق بالماء . وبها عشرون كُتَّاباً «مدرسة للصبية» وسبع «دور للقراء» دار القراء ، وسبع دور

(١) صوقوللي محمد باشا : صوقوللي محمد باشا = صوقوللي محمدباشا - محمد باشا صوقوللي :

تولى الصدارة لمدة ١٥ عاماً في عهد كل من السلطان سليمان القانوني وسليم خان الثاني ومراد خان الثالث ، يُنسب إلى قسبة صوقل في البوسنة ، تربي في السراي السلطاني ، وعين في الضواحي بلقب قبوجي باشا ، ثم أنعم عليه بالوزارة لما أبداه من شجاعة وحسن تدبير خلال فتح طمشوار في بلاد الروميلى . ثم عين قبطاناً سنة ٩٥٣هـ = ١٥٤٦م ثم صاهر السلطان بزواجه من «سميخان سلطان» سنة ٩٦٩هـ - ١٥٦١م ثم أصبح الوزير الثاني عقب ذلك . ثم رُقي إلى مرتبة الصدارة سنة ٩٧٢هـ = ١٥٦٤م عندما توفى السلطان سليمان كتم خبير الوفاة حتى تم جلوس السلطان سليم الثاني على العرش . أدار أمور الدولة بقدرة وإقتدار . شارك في فتح العديد من مدن ودويلات البلقان . إستشهد بخنجر أحد المجازيب سنة ٩٨٧هـ = ١٥٧٩م . مدفون في ضريح خاص به بجوار أبي أيوب الأنصاري . «المرجم» .

(٢) السلطان محمد الثالث : (١٥٦٦ - ١٦٠٣م = ٩٧٤ - ١٠١٢هـ) والده هو السلطان مراد الثالث وأمه هي صغية سلطان . ولد في ١٥ ابريل سنة ١٥٦٦م ، تولى العرش في ٢٧ يناير سنة ١٥٩٥م . وجه حروبه إلى شبه جزيرة البلقان . فتح ، وأعاد فتح العديد من مدنها . تم القاء حجر الأساس للجامع الجديد «بني جامع» في عهده . كان يوقف الكثير من غنائم فتوحاته على الحرمين الشريفين ، وعرف عنه حبه للخير ، وتوفي في ٢٠/٢١ من شهر نوفمبر سنة ١٦٠٣م .

(٣) الحمامات : أقام العثمانيون أسوة بالحكام المسلمون الآخرون حمامات كثيرة ومتطورة حول الينابيع ، وكان بعضها له قباب مزينة من الداخل بأشكال النجوم والفصوص الحلزونية الشكل . وكان يصل قطر قباب بعضها ١٦ متراً ، ومحمولة على دلايات منشورية ، وبعضها رحيبة وذات زخارف كثيرة من الداخل .. وكانت تُقام بعض الحمامات بجوار عيون المياه الدافئة .

للحديث « دار الحديث » وسبعون نُزُلٌ لعابرى السبيل والغرباء ، ولبعضها أوقاف كثيرة تمكنها من أن توزع على الحجيج غسل ، وشربات محلى بالسكر . وهناك ثلاثة أماكن ؛ بها صنابير مياه ، يُنزل إليها بحوالى عشرين أو ثلاثين درجة من درجات السلالم الحجرية وتصلها المياه من ماء « عين الزرقاء » التى تصل إلى المدينة ، وهم من خيرات السلطان سليمان . وعلى بعض الأسبلة (١) كتبت الآية الكريمة ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (٢١) ﴿*﴾ وعلى البعض الآخر نُقِشَت الآية ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلاً ﴾ (١٨) ﴿**﴾ .

وفى الواقع ؛ ليس هناك فى المدينة ما هو أعز ، وأندر من المياه وإذا ما قام واحد من أصحاب الخيرات بتوصيل الماء إلى مسجد الرسول ﷺ وبنى حوضاً للمياه فيكون له ثواب ألف حجة ، وكم من الحكام قد وفدوا إلي هذه الديار المشرفة ، ولكن لم يتيسر لأى منهم ، القيام بهذا الخير الميسر ، ولم ينل هذا الثواب . وبعض الحجاج الغرباء ينوون الوضوء ، ويتوقون الزيارة ، فيضطرون إلي شراء إبريق من الماء من أحد الفقراء ، وقد يصل ثمنه إلي أكثر من قطعتين من النقود ، ليتوضئ به ، فهم حقاً يتحملون

= لقد أصبح للحمام التركي نمطه المعمارى الخاص به ، ويتكون فى الغالب من غرفة لتغيير الملابس ، على هيئة رواق كبير ، ويعلمها قبتان ، الواحدة من وراء الأخرى ، وتتصل الأخيرة بالغرفة الدافئة ، وبها هى الأخرى قبة ترتفع فوق أعمدة تستند على الجدران ، ثم يلي ذلك غرفة ساخنة بها حوض الماء الساخن ، وتتسع الجوانب لإضافة حنيات ركنية ، وتوجد فى قمة كل قبة كوة نافذة تسمح بدخول الضوء ، توجد فى الغرفة الدافئة ، وغرفة تغيير الملابس المجاورة ، أحواض تنوسطها النافورات فى الغالب . وكان للحمامات دور كبير فى الجوانب الاجتماعية إلى جانب دورها فى النظافة ، والطهارة ، والاعتسال .

ولسوف نرى تفصيلاً عن حمامات المدينة فى كتاب مرآة المدينة الذى ستصدر ترجمته قريباً بإذن الله . « المترجم »
(٥) الخانات : كانت الخانات بمثابة النزل ، أو الفنادق المعدة لإستقبال الحجاج ، أو التجار وبضائعهم ودوابهم ، وبحيث تُغطى منشأتها كل هذه الاحتياجات .. وكان بعضها على طرق القوافل وداخل المدن .

(١) الأسبلة : حرصت الحضارة الإسلامية على تعميم الأسبلة ، والششم «عين المياه» والصنابير فى كل البلاد ، وكانت تُبنى فى واجهات المساجد ، والمدارس .. وما تزال هذه المنشآت باقية إلى الآن وقد حرص السلاطين والخلفاء والحكام المسلمون على تعميمها .. وكان أسلوب البناء والنقش والزخرفة يتغير تبعاً لظروف المباني التى ألحقت بها . أما الأسبلة ذات الجوانب الأربعة ، فقد ارتفعت فى مواضعها كالقبلا ، أو الأكشاك الصغيرة ، وسط الميادين العامة ، وأضفى هذا عليها فخامة وروعة ، وجهزت هذه الأسبلة بالماء الجارى وزخرفت واجهتها بالزخارف الجميلة ، وكان منها ذات الواجنتين أو ذات الشمتين .

وسنرى تفصيلاً لها فى كتاب مرآة المدينة المنورة الذى ستصدر ترجمته قريباً إن شاء الله تعالى « المترجم »

﴿*﴾ سورة الإنسان آية ٢١ .

﴿**﴾ سورة الإنسان آية ١٨ .

مشقة جامعة فى سبيل الحصول على الماء . ويعرض التجار الذين يفدون من أقاليم الدنيا السبعة ، بضائعهم فى المدينة ، والآهالى يعملون بالتجارة . وأبواب المدينة ، ومحلاتها مفتوحة ليلاً ونهاراً طوال أشهر رجب وشعبان ، ورمضان ، ويضيئون المدينة ليلاً بمئات الألوف من القناديل . ولكن العيد الحقيقى للآهالى هو مجئ الحجاج المسلمين . حيث يأتى معهم المحمل (١) والصرة والهدايا ، والاعطيات . فيرتدى الآهالى أفخر ما عندهم من ثياب ، ويدعون الحجاج إلى بيوتهم ، ويعقدون معهم صداقات حميمة ، ويؤدون معهم مناسك الزيارة وهذا مما لا شك فيه يحقق لهم مكاسب عدة . والسلام

ضاحية المدينة المنورة:

وتقع هذه الضاحية قبالة القلعة ، وأطرافها الشمالية ، والغربية والجنوبية ، كلها عبارة عن قصور ، وبيوت ذات حدائق ، غناء ، وبساتين يانعة ، والمدينة عبارة عن سبعة أحياء ، بها ألفين منزلاً ثنائية الطوابق تُستجلب أشجارها ، وأخشابها ، من مصر عن طريق السويس ، إلى ينبع البحر ، ومن هناك بالجمال ، إلى المدينة . ويصنع أهل المدينة من هذه الأشجار ، والأخشاب منازلهم . وحول المدينة كلها ، ومن جهاتها الأربع ، وادى جاف ، وكأنه للمدينة بمثابة الخندق .

وفوق محرابه نُقِشت الآية ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ (*). وليس له فناء ، ولكن له إيوان خارجى ، أما داخله فمفروش بالأحجار الصغيرة « الحصى » والدعوات فيه مستجابة لإن المصطفى (ﷺ) قد دعى بذلك .

(١) المحمل : الحمل الشريف : مصطلح إدارى يُستخدم للدلالة على الوسيلة التى كانت تُستخدم لحمل ، ونقل الصرة الشريفة ، وستارة الكعبة ، والهدايا المقدمة من السلطان ، أو والى مصر ، أو الحاكم ، أو الخليفة ، إلى الحرمين الشريفين ، وأهل الحجاز ، والمجاورين ، والدارسين فى الحرمين ، وكانت هذه الامتعة تُحْمَل على الجمال ، وكان السلطان فى الآستانه ، أو والى مصر يُشيع بنفسه المحمل الشريف عند سفره إلى الحجاز فى موسم الحج . وكان يرافق المحمل آلاى الصرة .. وكانت هذه المراسم تتم فى أواسط شهر شعبان من كل عام . وسط احتفالات ، ومراسم شعبية ورسومية بديعة . وكان كل والى يتولى شئون المحمل ورعايته خلال مروره عبر حدود ولايته .. ثم يتم استقباله من قبل الوالى فى الولاية التى سيدخلها حتى يتم الاستقبال النهائى من قبل والى الحجاز وأمير مكة والشريف وأعوان الحرمين ، وقائد الحامية العسكرية فى كل من المدينة المنورة ، ومكة المكرمة ، وسط حفاوة بالغة . (الترجم)

(*) سورة آل عمران آية ٣٧ .

غرب هذا الجامع يقع مسجد سيدنا أبى بكر الصديق ، وعلى بعد مائة خطوة وناحية القبلة من المسجد النبوى الشريف وعلى مساحة مسطحة يقع مسجد وهو مسجد أنيق وبه قبة .

وبعض من المدارس التى كانت تبلغ ست وأربعين مدرسة قد تحولت إلى منازل . وبها ست مدارس « دار للقراء » وإحدى عشر « داراً للحديث » وعشرون مدرسة للصبية والأطفال . وجميع هذه المدارس مرتبطة بالصرة السنوية ، ولكل حصّة محددة . وخيرات المدينة المنورة لتُصَادَف في أي مدينة أخرى .

وبهذه الضاحية حمام عام ، ولكنه لا يعمل طوال اليوم ، وبالقرب منه مدرسة « الخاصكية »^(١) حيث ينام بها الحجاج . كما أن بئر سيدنا على بهذه الضاحية أيضاً .

وبها أربعة مباني كبيرة ، إحداها من آثار السلطان سليمان ، وهو بالقرب من حمام مراد الثالث . ومن الخاصة السلطانية تُوزع الشورية « الحساء » ولحم الضأن ، والأرز ، والزرّدة ، والعاشوراء على الفقراء ، والمساكين ليلاً ، ونهاراً كما تُوزع على الذين يسكنون داخل أسوار القلعة جميعاً ؛ غنى ، أو فقير خادم ، أو مخدوم .

(١) الخاصكية « خاصه كى » Haseki مصطلح يُطلق على الجارية التى كان يستحسنها السلطان ، وتدخل ضمن محظياته .. كانت الفتاة التى تقدم إلى السراى كهدية أو تشتري تُسمى فى البداية « أعجمية » أى ما زالت خام ، ولم تدرب بعد . ثم تُصبح « قلفه » وفى النهاية تُصبح « خزينة دار » . وللترقى فى هذه المناصب كان الأمر يتطلب إلى جانب الجمال ؛ العلم والخبرة وحسن المعاشرة ، ومَنْ تروق للسلطان تصبح « خصكى أو خاصكى » أى خاصة ، أو محظيته . ويمكن أن يكون للسلطان أكثر من خاصكية ؛ ربما تكون أربع وحتى ثمان محظيات . وربما يختار السلطان من بينهن من يكن زوجاته ، وتكسب لقب « سيده » بدلاً من محظية . وتُعَيّن لكل خاصكية أى لكل محظية حرماً أو دائرة خاصة بها .

ومَنْ كانت تنجب للسلطان ولياً للعهد ؛ كانت تُسمى والده سلطان أى السلطانة الوالدة ، وظلت بعضهن محظيات أى خاصكية للسلطان على الرغم من حصولها على لقب والدة سلطان ، فليس من الضروري أن يتم الزواج . وأول من فكر فى أن تكون الزوجة بعقد النكاح هو السلطان عثمان الثانى ، وإبراهيم ، وكان يعد السلطان محمد الفاتح . وقد أراد الأول بزواجه من إبنة شيخ الإسلام أن يجعل نسله يكون من زوجات ، وليس من محظيات - وكان السلطان إبراهيم إذا أعجبتته خاصكية ، يعقد عليها ويتم العرس ، إلا أن هذه العادة قد استمرت حتى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، فحتى عصر هذا السلطان كانت زوجات السلاطين من الخاصكية ، وكان يُطلق على أطفالهن « خاصكى سلطان » وبعده تم اطلاق لقب « قادين أفندى » على سيدات القصر .

وكان من الأسرار المحرمة ، هو الأمر الذى تدخل فتياتها إلى السراى .. ولم يكن يسمح بتداول المعلومات عن حرم السلطان على الإطلاق ، وذلك بهدف الحفاظ على نسب ، وسلالة الأسرة العثمانية الحاكمة .. « المترجم »

وبهذه الضاحية أربعون مضيضة ؛ يؤمها عابروا السبيل ؛ وأشهرها هي مضيضة المفتش محمد باشا التي تقع في إيوان جامع الإمبرال . وعلى بابها تاريخ منقوش ، ولكني لم أتمكن من نقله ، وكتابته بسبب السرعة وخارج باب مصر ؛ يوجد سبيل الآغا (١) ، وقد نُقش على نافذته الآية الكريمة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾ (٥) . وعلى ناصية كِبْدِي « خاصكى سلطان » (٢) يوجد سبيل آغا در السعادة (٣) . كما

(١) الآغا ؛ A'ga مصطلح عسكري وإداري كان يُطلق في العهد الماضي على أصحاب المواقع الرفيعة في الدولة . وكان هذا المصطلح ، « الآغوية » يحمل أهمية كبيرة في الدولة العثمانية قبل فترة التنظيمات (١٨٣٩ م = ١٢٥٥ هـ) . وكان يُطلق بصفة عامة ومطلقة على ضباط الانكشارية . ثم أصبح يُطلق على الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة من أصحاب الثروة .

كما تدل الآغوية ، بين الشعب على السطوة ، والقوة والشدة ، وعلو الجانب من ناحية ، ومن ناحية أخرى على الكرم والوجاهة ، ويعتبر لقباً بين التركمان ، وعلى الحصيان ، والطواشية ، وعبيد الباب .. وحدم الحرم في القصور السلطانية .

أما في اللهجة الجفطائية فمعناه ؛ الأخ الأكبر وفي اللهجات التركية الغربية يفيد معنى « أفندي » أو السيد ، ويحل محل « بك » لدى التركمانيين ، في العصر التيموري تدل على الأصالة ، وصاحب الشرف والمقام الرفيع ، وكان لقباً للسيدة التي استرقها ثم تزوجها تيمورلنك .

وفي اللغة التركية العثمانية ، تُستخدم كلمة آغا للدلالة على كبير البيت والمائلة ، وصاحب الأرض الزراعية الشاسعة . كما كانت لقباً للكثيرين الذين يقومون ببعض الوظائف الإدارية ، آغا البريد ، آغا الباب ، آغا البلوك ومنهم آغوات الحرم . ؛ أغلت الحرم = آغوات الحرم ؛ مصطلح يُطلق على الطواشية أي الحصيان الذين يعملون كخدم في الحرم ؛ سواء أكان الحرم النبوي ، أو الحرم المكي . كما يُطلق في العصر الحديث على الذين يتولون الخدمة ، والأمن في الحرمين الشريفين . في العصر العثماني كان هؤلاء الطواشية يخدمون أولاً في القصور والسرايات وعند تغيير السلطان ، أو بلوغ الآغا نفسه سنّاً كبيراً كان يبعث به مع آخرين للعمل بالخدمة في الحرمين الشريفين ، وكان لبعضهم نفوذ ، وثروة كبيرة استمدها من نفوذ وثروة السلطان الذي تربى في كنفه .

ولما كانوا في البداية يعملون في خدمة سيدات السراي فقد كان يطلق عليهم إسم « خدم الحرم » أي خدم الحرم ، ففي هذه المرحلة يكون المقصود حرم السراي .. وكانوا أغلبهم من الزوج السود ، الذين كانوا يقدمون إلى السراي من قبل والى مصر ولكن قام الصدر الأعظم ابشير مصطفى باشا بمحاولة بإبعادهم عن السراي ولكنه لم يوفق ، ولكن تمكن الصدر الأعظم الشهيد علي باشا بالقضاء على هذا النظام في عهد السلطان أحمد الثالث . وأصدر في سنة ١١٢٧ هـ = ١٧١٥ م أمراً صريحاً إلى والى مصر بإبطال خصى الصبيان الحبشيين . (المترجم)

(*) سورة الأنبياء آية ٣٠ .

(٢) خاصكى سلطان ؛ خرّم خاصكى ؛ إحدى زوجات السلطان سليمان القانوني . والدة كل من السلطان سليم خان الثاني ، وولي العهد بايزيد ، والأميرة مهرماه سلطان . من أصل روسي ، اكتسبت نفوذاً كبيراً بسبب جمالها وذكائها منذ كانت محظية . ولكنها لم توظف هذا النفوذ في الخير طول الوقت . كانت سبباً في إعدام كل من الصدر الأعظم إبراهيم باشا وأحمد باشا . وكانت هي السبب في قتل ولي العهد مصطفى ليخلو المكان لابنتها سليم . وهي التي تُسمى في المصادر الغربية « روكسلان » (Roxelane) . وهي يهودية الأصل . (المترجم)

(٣) آغادر السعادة : مصطلح عسكري ، وإداري كان يُطلق على كبار القادة والموظفين في السراي العثمانية . وكانت =

رأيت أن هناك سبيل ماء ، ملحق بكل خان ، أو مدرسة ، وتُجلب مياهها من ماء «عين الزرقاء» . كما يوجد بها سبعة أحواض ، كما أن الأبار تنتشر ، حيث تمر مياه عين الزرقاء . وبها حوالي مائة دكان أغلبها مقاهى ، ودكاكين قصابين ، ومطاعم وعطارين ، وصيارفة .

وتتحول المدينة إلى بحر من البشر عندما يفد الحجيج ، ويعم الرخاء . وتعداد سكان المدينة خارج أيام الحج حوالي أربعة عشر ألف نسمة . ويرد إليهم كل ماكلهم ، ومشاربهم من مصر ؛ حيث أوقف كل من سليم فاتح مصر ، وسليمان ، ومراد الثالث ، والسلطان أحمد ، عليها أوقافاً ، كثيرة في مصر . فالدشيشة والقمح يأتیان من الأوقاف « المرادية » و « المحمدية » و « الخاصكية » . فمن الدشيشة أربعة عشر ألفاً ، ومن القمح مائة ألف أردب تُحصّل في مصر ، وتُجلب إلى المدينة ، وتوزع على الأهالي كل حسب البراءة السلطانية التي يملكها .

وما أن يصل أمين الصرة مع قافلة الحج الشامي^(١) حتى يحضر المبالغ المخصصة

= الآغوية مصطلحاً مهماً قبل تنظيمات سنة ١٨٣٩م = ١٢٥٥هـ . كما كان يُطلق بصفة عامة على ضباط الانكشارية ولكنها بعد ذلك أصبحت تُطلق على أصحاب الأراضي والملك الذين لا يعرفون القراءة والكتابة . كما كان يُطلق على كبار العاملين في السراي . وكان الباشأغا يتولى امانه العاصمة - ودر السعادة يُقصد بها هنا العاصمة استانبول . فهنا آغا در السعادة أي أمين باب السعادة = استانبول . وكان هو المسئول عن كل أمور العاصمة . (المترجم)

(١) قافلة الحج الشامي : وهو الطريق الذي كانت تقطعه قافلة الحج الشامي والتي كانت تضم حجاج الشام والأناضول والقوقاز وشبه جزيرة البلقان .. وبعد أن تصل هذه القوافل إلى الشام وخاصة مدينة دمشق ينضم إليها حجاج ايران ويتجهون سوياً إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة مروراً بالمناطق التالية : طريق قافلة الحج الشامي : كان طريق الشام هو احدى الطرق السبعة المذكورة التي كانت تسلكها قوافل الحج في الذهاب والإياب ، كما كان (محمل الشام الشريف) يسلك هذا الطريق .

كانت قافلة الشام تتحرك - في أغلب الاحيان - في الخامس عشر من شوال تحت رئاسة أمير الحج ، والتي كان يتولاها في العادة والى سوريا . وكان يسبق التحرك احتفال مهيب ينظمه قائد الجيش الخامس ، وبعد القيام بالشرقيات المعهودة في مثل هذه الأمور ، تخرج القافلة من الشام من (قبة الحاج) التي كانت تعد نقطة البدء للقافلة ، ومن هناك أيضاً تتحرك إلى (الكسوة) وينضم إليها الحجاج الذين يجتمعوا في (مزيريب) ، وتتجه القافلة نحو المرحلة الأولى من هذا الطريق والتي تسمى (خان ذى النون) .

ومنذ القدم كانت تقدم وجبة ساخنة للحجاج والحراس من وقف ابن الحصن عند استراحة خان ذى النون ، كما كانت توزع عليهم كمية من المأكولات نظير رسم معهود في نفس المرحلة أيضاً .

والقافلة المتحركة من خان ذى النون تمر من المكان المسمى (خان الزيت) حتى تصل إلى استراحة (خيمن) . والمرحلة المذكورة هي بعينها قرية ابن قواص التركماني . وهذه القرية ذات مياه وفيرة وطيورها متنوعة وكلاب الصيد =

من مصر ، ومقدارها ثنتا وستون ألف قطعة ذهبية شريفية ، عدا ما يرد من الأوقاف الأخرى ، المخصصة لكل من مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، في البلدان

= فيها مشهورة ، حتى أن معظم كلاب الصيد التي يستخدمها أهالي الشام الشريف تستجلب من هذه القرية ، والقافلة التي تغادر مرحلة خيمن تتوقف في موقع (غباغب) بعد أن تكون قد عبرت (تل فرعون) .
وفي غباغب قلعة حصينة هي من آثار المرحوم السلطان سليم الأول الذي أوقف حمايتها على أحفاد إبن قواس التركمانى سالف الذكر ، وهي قلعة حصينة بقدر ما هي جميلة .
ومن الوظائف والواجبات المنوطة بأحفاد ابن قواس سالف الذكر أيضاً ، المحافظة على طريق الحج ، الممتد من ذى النون حتى خيمن وحمايته .
والقوافل التي تترك غباغب تصل إى مزهيب بعد أن تكون قد مرت ببئر (دهله) . ومن العادات القديمة التوقف عند دهله بعض الوقت لإناخة الجمال حيناً لتلقط أنفاسها .
مزهيب :

مزهيب اسم متنزه كبير ومشهور داخل بلدة حوران ، والمرحوم السلطان سليم هو الذى أمر ببناء قلعة جميلة بجوار عين مزهيب من أجل راحة الحجاج والعناية بهم ، وقد أمر بوضع بعض الجنود بهذه القلعة للمحافظة عليها .
ولما كان هذا الطريق فى مامن من تسلط الأعراب وغاراتهم ، فإن المحمل الشريف يقيم فى هذه المنطقة بضعة أيام . كما يقام بها مايشبه السوق ، حيث يتم بين الحجاج وبين التجار ، الذين يتوافدون من المناطق المحيطة ، بعض المعاملات التجارية .

والقوافل المتحركة من قلعة مزهيب تتوقف عند مرحلة (كتيبة) التي تقع إلى الجنوب قليلاً من القلعة المذكورة ، وهذه المرحلة تتمتع بكثرة الآبار ذات المياه العذبة المتدفقة ، وبالرغم من هذا ، فإن المسافرين لا يقضون لياليهم فى نفس المكان ، بل يستمرون فى سيرهم حتى (ازرغات) .
ازرغات :

ازرغات هذه قرية بالقرب من حوران . ومع أنه توجد استراحة تقع على بعد نصف مسافة من هذه القرية ، إلا أن القوافل لا تتوقف عندها لعدم وجود المياه الكافية بجوار هذه الاستراحة ، بل تستمر فى سيرها حتى ازرغات .
والقوافل المتحركة من قرية ازرغات هذه تصل إلى (الزرقا) ، ومنها تصل إلى (الزرق) .
الزرقا :

وقرية الزرقا قرية تحتوى على مياه كثيرة جاربة . كما تحتوى أزرق على اطلال قلعة قديمة ، وكثير من حدائق النخيل . والمكان الذى تتوقف فيه القوافل كثيره المياه . وتقع قرية أزرق هذه على بعد مسيرة يوم واحد إلى الشمال الشرقى من الزرقا .

والقوافل التي تغادر أزرق تصل أولاً إلى (عمرى) وبعدها إلى (بلقا) .
وعلى طريق عمرى وعند استراحة (دومة) وفى الجهة الشرقية توجد ساقيتان لإخراج المياه . وهذه المياه تانى من عمان وتتجه ناحية الغور فى جريانها . وتقع بلقا فى أقصى جنوب ولاية سوريا على درجة ٣٣ خط عرض و١٢ دقيقة شمالاً و٣٣ دقيقة واحدة على خط طول شرقى . ولكن القوافل لا تتوقف فيها لعدم توافر المياه بها .
وتصل القوافل المتحركة من بلقا إلى استراحة (قطران) بعد اجتياز سبع عقبات ، ومن هناك تتحرك القوافل حتى تصل إلى منزل (حسا) .

والسلطان سليمان هو الذى أمر بتأسيس قلعة كبيرة عند مرحلة قطران ، وهو الذى أمر بحفر وتطهير بركتها التي كانت قد سويت بالأرض لامتلائها بالملفات . وقد أرسل خمسة عشر ألف فيلورى للمصرف منها على هذه الأغراض .
ولم تكن قوافل الحج التي لا تجد المياه اللازمة لها فى بركة قطران ، تتوقف فى هذه المرحلة ، بل كانت تتابع سيرها =

التي تم فتحها حديثاً ، ويقوم - فى حضور شيخ الحرم وملاً المدينة . بتوزيع هذه الحصص على أصحابها نهاراً ، وليلاً تحت أضواء المشاعل وطبقاً للدفاتر السلطانية .

= حتى تحط رحالها عند جسر (الجون) الواقع فى الطرف الغربى للمرحلة السابقة .
ثم تصل القوافل إلى قرية (الكرك والشوبك) الواقعتين فى الشمال الشرقى للمنزل السابق ، وعندما تصل قافلة الحجيج إلى الحسا كانت ترسل مؤنفاً من هذه القرى .
وعلى الرغم من أن قرية الشوبك هذه تقع بين الجبال ، إلا أنها تتمتع بالمياه المتدفقة ، ومراعيتها الخضراء الكثيرة . وفوق الجبل الواقع فى الطرف الغربى ، يوجد نزل ونيح ماء ، وبالقرب من هذا النزل يوجد جسر صغير .
أما الكرك فهى مركز ملحق بسنجد الشام ، ومرتبطة بالدوائر الحكومية الموجودة فى (نابلس) ، وأراضيها خصبة وذات محاصيل وفيرة . إلا أن سكانها من قبائل البدو ، وعشائهم لا يعرفون شيئاً عن المدينة الحديثة . وتعداد سكانها حوالى ثمانية آلاف ستة منهم أو يزيد على الدين الإسلامى ، أما البقية الباقية فهى على الدين المسيحى .
والقوافل التى تغادر الحسا تصل إلى (ظهر عنيزة) ، ثم تصل بعد ذلك إلى قلعة معان .
وإذا كان الطريق الممتد بين (الحسا) و(عنيزة) فيه الكثير من المنحنيات والانحدارات ، إلا أن الحدائق التى ترى فى (الوبك) و(عنيزة) من بعيد تجعله طريقاً مأموناً .
أما مرحلة (معان) فهى تتبع ناحية (شراء) . وكانت هذه المنطقة مقر إقامة بنى أمية فى القدم وماوى رجالاتهم . وللسلطان سليمان القانونى فى المنطقة قلعة ويتنوع ماء . ومع أن مياه هذه العين لا تستحق المدح والثناء ، إلا أنها تدفع عن المسافرين والقوافل شدة العطش والحاجة الملحة إلى المياه .
وبعد قلعة معان تصل القوافل إلى (شهر العقبة) ، ومن هناك تتحرك نحو (ذات الحج) وتسمى ظهر العقبة بـ (عبادان) أيضاً . وإذا كانت هذه المرحلة تعوزها المياه ، إلا أنها مشهورة بتمورها وبلحها الذى يسمى (طيلليات) .
كما أن ذات الحج أيضاً لها اسم آخر وهو حجر ، وقد أمر المرحوم السلطان سليمان القانونى بإقامة قلعة فى هذا المكان أيضاً . وتأتى مياه ذات الحج من الحفر والآبار التى يقوم الأهالى بحفرها ، ويصنعون لها المجارى ، ويقومون المشاتل والمزارع على مياها . وتشتهر هذه المنطقة بالعديد من أنواع التمور والبلح الذى تشتته به بساكنها .
والحجاج الذين يغادرون ذات الحج يصلون إلى (قاع البسيط) ، ومن هناك يشدون الرحال إلى (تبوك) .
ومنطقة قاع البسيط منطقة رملية ، تسمى أيضاً بـ (عرايد) ، وقمة الجبل المرتفعة التى يسميها العرب (شروراً) تقع فى مكان يتوسط هذه المنطقة الرملية .
وتشتهر منطقة تبوك بالبلح والتمور . وقد أمر المرحوم السلطان سليمان بإقامة قلعة حجرية منيعة فى هذا الموقع أيضاً .
وما يروى أن المصطفى ﷺ قاد المجاهدين أثناء غزوة تبوك الشهيرة ، قد ملا راحتيه الكرىميتين من نهر تبوك ونشرها فى الوادى الذى كانت مياهه قليلة وراكدة آنذاك . فتدفقت مياها وبدأت فى الجريان ، وما زالت تلك المياه تسيل حتى الآن .
وتوجد بركة ذات مياه بالقرب من قلعة تبوك .
والقوافل المسافرة من تبوك تصل إلى منزل (مقابر القلندرية) ، ومنها تنجه إلى مرحلة (أخيضر) .
ومقابر القلندرية هذه عبارة عن هضبة صغيرة إلى حد ما ليست بها عيون ماء . أما أخيضر فتقع بين الجبال ، وهى ذات مساحات واسعة ، وقلعتها تحت إدارة حكومة الشام . وتوجد ثلاث برك ملاصقة للقلعة تماماً لدرجة أن سكان القلعة يأخذون المياه من الآبار الواقعة داخل الحصن ويملاون بها البرك المذكورة .
وقد أمر السلطان سليمان القانونى فى بداية جلوسه على العرش سنة ٩٢٦ هـ (١٥٢٠ م) ، وإليه على الشام مصطفى باشا بان يشيد قلعة أخيضر . وبناء على هذا الأمر قام مصطفى باشا هذا بتكليف (طربان بن قراجا) شيخ عربان بنى حارثة ببناء هذه القلعة ، فقام بتشبيدها على الفور ، لأن عربان بنى عقبه وبنى لام كلما نشب الخلاف ودب العصيان بينهم ، قاموا بإغلاق الآبار وتصفية البرك من مياهاها .

ويتم ذلك كله وسط فرحة الأهالي ، وتهليلهم وبالثناء والدعاء للسلطان .

= وتصل القوافل بعد مرحلة اخيضر إلى (بركة المعظم) ، وتتجه من هنالك إلى (مغارش الزير) . وبعد هذه المرحلة تتجه القوافل إلى مرحلة (جبل الطاق) .

بركة المعظم :

وهي عبارة عن حوض كبير أقيم ليملا بمياه السيول وسط منطقة صحراوية ، ويظل فارغاً من المياه عند انقطاع الأمطار ، ويروى أن هذا الحوض من آثار الملك المعظم عيسى أحد سلاطين بني أيوب .

مغارش الزير :

ويطلق عليها أيضاً (فراح وأفرع) وهي تبعد عن جبل الطاق بنصف مرحلة فقط .

جبل الطاق :

وهو الموقع الذي عقرت فيه ناقة صالح عليه وعلى نبينا السلام ، وبعد أن تصل قوافل الحج إلى هذا الموقع ، تتجه ناحية الشرق ، وتخرج نحو (ميرك الناقة) ثم تتابع سيرها حتى تنزل في مرحلة (حجر) .

الحجر :

ويطلق عليه أيضاً (قرى صالح) . وهذه القرى عبارة عن هضاب رملية وبيوت منحوتة في الصخر على قمم الجبال . . . وهذه المنطقة وإن كانت آثارها كثيرة إلا أنه قد نهى عن الشرب منها .

قرى صالح :

وهي عبارة عن موقع رملي ويابس به بعض الجبال المنخفضة وتُسمى هذه الجبال بالانائب أيضاً . وقد مر الرسول الكريم ﷺ بهذا المكان عند ذهابه إلى غزوة تبوك . وهو - عليه الصلاة والسلام - الذي تناول بعضاً من مياه آبارها ثم نهى عن شربها ، بل وأمر بسرعة المرور والعبور من هذه المناطق .

الحجر :

وهي الأراضي التي تعرف بديار ثمود . وتوجد بها بعض المنازل التي نحتت في الجبال . وبها أيضاً مسجد صالح الذي حفر في البقعة الشريفة من هذه الديار . وحول هذا المسجد الشريف توجد بعض الأطلال والآثار التي بقيت من عهد ثمود .

ويطلق على الجبل الذي توجد عليها استراحة الحجر (جبل ائان) . وكان صالح بن عبيد بن اسفان ماشيخ بن عبيد بن ثمود بن عابر بن إرم ابن سام وأولاد عمومتهم جديس وعاد يسكنون بجوار الحجر هذا ، وكانوا يعبدون أصنامهم في تلك البقاع ، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى ، صالح إليهم ليدعوهم إلى التوحيد . وقد أرادواهم بدورهم إعجاز صالح (عليه وعلى نبينا السلام) ، بأن طلبوا منه أن يخرج لهم ناقة من الصخر . وبناء على إصرارهم هذا أخرج لهم الحق جل وعلا ناقة من الصخر ، وتمادى بعضهم في غيه وعناده . ولم يؤمنوا بما دعاهم إليه صالح ، وحددوا يوماً لكي تشرب فيه الناقة من البئر الذي منه يسقون . ثم قرأهم على أن يعفروا ناقة صالح . وعقرها رئيسهم (قدرا) ، فأنذرهم صالح بأن العذاب سيأتيهم بعد ثلاثة أيام . وهاجر عليه السلام إلى بلدة (الرملة) في فلسطين واختارها موطناً ومقاماً له . وبعد أن انقضت المهلة الممنوحة لهم ، اتاهم عذاب الله . إذ أنزل عليهم من السماء حجارة كأنها سهام القضاء ، ونالهم الهلاك المبين . وأصبحت جثثهم هامدة ، وديارهم خاوية . ولم يحمم ما شيدوه من قصور شامخة ، وما جمعوه من أموال وافرة ، ونحتوه من بيوت آمنة . وكان ذلك تصديفاً لوعده ، ومظاهرةً لنبيه ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم «فأصبحوا في ديارهم جائعين» .

والقوافل التي تغادر مغارش الزير تواصل سيرها جهة القبلة مسافة نصف منزل أي حتى المكان الذي عقرت فيه ناقة صالح . ثم تتحرك من هناك حتى تنزل في منزل (الحجر) سابق الذكر والواقع في الجهة الشرقية . وتمر القوافل مسرعة أمام الصخرة التي عقرت فيها ناقة صالح حتى لا يسمعون صدى صوت الناقة عند عقرها لأن الجمال والنوق التي قدر لها أن تسمع صدى صوت ناقة صالح تنبئ بركة ، ولا تستطيع أن تنهض مرة أخرى ، ويحتقد البعض أن هذا هو السر وراء دعوة المصطفى عليه الصلاة والسلام لرجاله أن يمشوا خفاً من هذا المكان عند توجيههم إلى غزوة تبوك .

وهواء المدينة ومناخها فى غاية الاعتدال والجمال ؛ فالمحجوب والحبيبة فى غاية الرقة والجمال والبهاء : « بيت »

- العـلا :

وتتجه القوافل القائمة من الحجر إلى موقع (العلا) الموجود فى الجهة الجنوبية ، وعلى مسيرة نصف مرحلة من ديار نمود .

تبعد العلا عن المدينة المنورة بست مراحل ، وهى من توابع المدينة المنورة وتكثر بها المياه الجارية والحدائق والبساتين . كما توجد بها قلعة حصينة ، وتمتع بانخفاض فى أسعار منتجاتها .

وكان السلطان سليمان القانونى قد أمر بتجديد قلعتها وحصنها . وقد ضرب حولها حصار من الجند لحراستها ، على اثر الشكوى التى قدمها الاهالى إلى والى الشام من غارة بعض العصاة من الأعراب على نخيلها . وبعدها بدأت الحكومة فى تقاضى درهم عن كل نخلة ، حتى يصرف من هذه الحصيلة على الجند . ويرى البعض أن هذه الضريبة قد ارتفعت إلى أربعين درهماً عن كل نخلة .

والقوافل التى تغادر (العلا) تتجه نحو (قطران أو طوامير) . وهذا المكان حجرى صلب صعب الاجتياز يخلو من المياه والسكان .

وتصل القوافل من هناك إلى (شعب النعام) . وهذا الموقع وإن كانت لا تتوفر فيه الآبار ، إلا أن الحجاج ينالون حاجتهم من المياه التى تراكمت على جانبي الطريق بعد هطول الأمطار .

شعب النعام :

وبعد (شعب النعام) تصل القوافل إلى مرحلة (هدية) . ومع أن هذه المنطقة تتوفر فيها المياه من الحفر ، إلا أن أحداً من المسافرين لا يقربها لأنها تسبب الإسهال ، وبعد هدية تصل القوافل إلى منزل (فحلتين) .

منزل فحلتين :

ومنزل فحلتين هذا عبارة عن هضبتين صغيرتين ، تخلوان تماماً من المياه ، ويوجد بالقرب من فحلتين جبل مرتفع فوق قمته حصن حصين .

والقائمون من (فحلتين) يمرون بـ (وادي القرى) ومنه إلى (بيار حمزة) . وبعد ذلك يصلون إلى (المدينة المنورة) وتستمر رحلة القوافل فمن الشام إلى المدينة المنورة ١٤٧ ساعة وتصل فى الغالب فى الثالث والعشرين من ذى القعدة من كل عام ، ثم تستمر حركتهم إلى (بيارعلى) .

وادي القسرى :

ووادي القسرى هذا موقع تكثر فيه الغابات والأشجار ، وإن لم توجد به المياه . وتنسب (بيار على) إلى الحيدر رضى الله عنه . وهى عبارة عن عدة آبار عمق كل منها ثلاثة أذرع .

ولما كانت القوافل تصل إلى هذا المنزل فى وقت الإحرام ، فإن الحجيج جميعهم يلبسون ملابس الإحرام فى هذا الموقع .

والقافلة التى تتحرك من (بيار على) تصل إلى (قبور الشهداء) ، وبعدها تصل إلى الجديدة .

قبور الشهداء :

وهى عبارة عن مكان محصور بين جبلين ، تعتمد مياهه على البحيرة التى تتجمع مياهها من أثر هطول الأمطار ، وإذا لم تسقط الأمطار ، تعذر الحصول على المياه فى هذا الموقع .

جديدة :

وهى عبارة عن هضبة صغيرة محصورة بين جبلين ، فوقها قرية صغيرة كثيرة المياه بانعة البساتين مليئة بالحدائق ، تمرها وقناؤها وشمامها وبطيخها كثير ، حلو المذاق .

والقائمون من الجديدة يصلون إلى (بدر) ، ومنها إلى (قاع البرو) ، ثم يتجهون نحو (رابغ) . وتوجد عدة قرى =

= عامرة بين قرية جديدة ووادي خضر . كما ان ناحية بدر تكثر فيها المياه الجارية والبساتين وارفه الظلال والحدائق ذات المحصول الوفير .

قاع السبرو :

وهو عبارة عن واد رملي منخفض يخلو من المياه . وإذا كانت رابغ هي الاخرى وادهاً رملياً ، إلى أن قرهما من البحر جعل مياه الآبار العذبة تتدفق إذا ما حفرنا الآبار في اى موقع من المواقع . وتكثر حدائق النخيل والبساتين في وادي رابغ هذا . كمايكثر في هذا الوادي نوع من السمك الذى يسمى (علف الغنم) . وهناك طائفتان تقطنان رابغ : إحداهما (روى) ، والاخرى (روى جماع) وكانت ترسل لهم صرة خاصة بهم .

والقوافل المتحركة من رابغ تصل إلى (طارق) ، ومن طارق تتجه إلى (عقبة السويق) .

بلاد الطارق :

تقع قرى بلاد الطارق فى الجهة الشمالية من مرحلة طارق ، والبلاد المذكورة عبارة عن مجموعة من القرى والمزارع العامرة بأشجار اللوز ، تقع فوق قمة جبل عال .

وعندما ينزل الحجاج فى استراحة طارق ، يفد عليهم اهالى قرى بلاد الطارق ليبيعوا لهم السمسم والزبد والجبن والحبوب المنوعة .

عقبة السويق :

وتقع على طريق (خليص) . وعلى الرغم من أن المسافة التى بينها وبين استراحة طارق كلها جبال صخرية صلبة صعبة الاجتياز ، إلا ان المسافة التى تبدأ من عقبة السويق فى اتجاه مكة عبارة عن أرض سهلة منبسطة ، ولذلك تتمتع ببساتين جميلة ، وبها بئر وماء جار وبحيرة صغيرة .

ولما كان اعراب زبيد وهم أسوأ قبائل العرب يسكنون فى هذه النواحي ، فقد خصصت لهم الدولة صرة خاصة بهم لكى لا يعتدون على القوافل ، وينهبون متاعها .

والقوافل المتحركة من عقبة السويق ، تواصل سيرها حتى تصل إلى المرحلة المسماة (عسفان) .

عسفان :

وهى من الآبار النبوية الماثورة . وتكثر الآبار فى هذه المنطقة ، ويطلق على بعضها (بطن مر) . ويقع مدرج عثمان فى الطرف الشرقى لبطن مر هذه .

وتصل القوافل قرية ابى عروة بعد مغادرة مرحلة عسفان ، ثم تدخل القوافل مكة المكرمة كانت تقطع القوافل المسافة من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة فى مائة وست ساعات . وكانت تدخل مشارف مكة فى أوائل ذى الحجة . أو تقوم من عسفان حتى تصل إلى طريق البرقا ، ثم تصل إلى مكة المكرمة عن طريق وادى المر يعتبر الطريق الذى يمتد من المدينة المنورة إلى وادى المرمم اصعب الطرق وأكثرها خطراً ولذلك كانت لا تسلكه القوافل إلا نادراً .

أبسو عرووة :

قرية صغيرة تقع فى حضن الجبل فى الجهة الغربية من الطريق ، وتكثر بها المياه الجارية والحدائق والبساتين . وهناك طريق آخر يؤدي إلى مكة المكرمة من الشام ، إلا انه غير مطروق فى زماننا لانعدام المياه والأمن فيه . وهذا الطريق المذكور يقع على الجانب الشرقى من الطريق الذى سبق أن عرفناه . والذين يرغبون فى اجتياز هذا الطريق ويخرجون من الشام حتى (أرابانى البصرة) . ومن هنالك يصلون إلى قلعة الأزرق . ومن الأزرق يتجهون نحو (قراقر) . ثم يتجهون منها إلى (قلته) . ومن قلته إلى (صبيحة) ، وبعدها (تيما) . ومن تيما تتجه القوافل نحو (وادى الصوان) ، ثم تسلك الطريق إلى مكة المكرمة عن طريق العلا سالف الذكر . وهناك خمسة منازل فى المسافة الواقعة بين الشام وقلعة أزرق ، ومن قلعة أزرق إلى مرحلة قراقر .

وتوجد بعض الآبار قليلة المياه ، وبعض اشجار النخيل فى هذه المنازل ، ويوجد بين قراقر وقلته منزلان ، وبين قلته وصبيحة منزلان آخرين . ومن صبيحة حتى تيما ثلاثة منازل ، ومن تيما حتى العلا أربعة منازل . واحتمال الحصول على قليل من الماء فى كل منزل من هذه المنازل امر وارد .

رفتاره كله مصور روان اولو غفناره كله معجزه اسعا بيان اولور (١)

سيدات المدينة ؛ جميعهن يرتدين الملابس الحريرية الزرقاء ، والشباشب ، ويتدثرن بالإيزار الأسود ، ويضعن على رؤوسهن نقاباً ، حريراً ، تنحصر ألوانه ما بين الأخضر ، والأحمر ، والأصفر . أما الرجال فيضعون على رؤوسهم عرقية « طاقية » شامية ، وفوقها الشال الكشميري أو العمامة البيضاء . والجميع - نساء ورجال - يكحلون عيونهم بالكحل .

أشجار الفاكهة التي تكثر في المدينة :

إن بستان صوقوللى محمد باشا ، وحديقة شيخ الإسلام وغيرهما من الحدائق ،

= ويشتمل هذا الطريق على عشر مراحل . وبين كل مرحلة وأخرى سبعة وعشرون ميلاً .

وهناك طريق آخر بين مكة والمدينة ، كثيراً ما يسلكه أهل المدينة أنفسهم .

والذين يسلكون هذا الطريق يتحركون من آبار على إيلي (سمحان) ، فـ (سمحان) ، فـ (جبل مفرح) فـ (قريش) فـ (قبور الشهداء) . ومن قبور الشهداء إلى (روحا) . ومنها إلى (شعب) ، ومن شعب إلى (تازى) وكان الطريق الممتد من المدينة المنورة حتى هذه المرحلة مخيف وخطر جداً . ثم (حنيف بنى عمرو) ، ومن هناك يمرون بطريق الوادى الصغير الذى يؤدي إلى المكان المقصود .

سمحان :

جبل صغير مثل جبل مفرح يقع بين جبلين شاهقين ، وقد اعتاد الجمالون على أن ينالوا العطايا والهدايا والمنع من الحجاج منذ القدم . عند وصول القوافل إلى هذه المرحلة .

روحا :

ويوجد بها بئر عميق الأغوار .

شعب :

وتقع بين جبلين . وبها يقع فى الجهة اليمنى من الطريق .

حنيف بنى عمرو :

واد طويل محصور بين جبلين ، توجد به عدة قرى ، وتوجد بهذه القرى عيون جاربة وآبار عذبة المياه وحدائق نخيل . وتسكن هذه القرى قبائل بنى عمرو وبنى سالم الذين يبلغ عددهم ألفاً تقريباً . وهم ذوو شهرة واسعة فى الحرب والقتال ، وخاصة فى رمى السهام . ويعتبرون من أكثر قبائل العرب غنى وثراء .

وادى الصغير :

يقع منزل وادى الصغير عند حافة جبل . وهو يتمتع بعيون جاربة ومياه عذبة وأشجار للنخيل ذات محصول وفير . وماؤه أعذب وأحلى من مياه بدر وبنى حنيف .

وتقيم فى هذا الموقع طائفة من الأشراف الزيدية الذين يقومون بحماية المارين والعابرين من هجمات البدو وغاراتهم . ويتقاضون صرة من الدولة فى مقابل ذلك . « المترجم »

(١) وترجمته : [تنبعث الروح فى القادم الوله ومجيئه بيبين معجزة السماء]

والبساتين عامرة بأنواع الفواكه الطازجة ؛ فبالمدينة سبعة أنواع من البلح ، والتمر ، وأنواع متعددة من التفاح ، والعنب ، والخوخ ، الذى يشبه وجنة الحساء . والمشمش ، والبرقوق بها كثير ، وليمونها فى حجم رأس الإنسان ، وبها عدة أنواع من النارج ، والليمون الحامض ، وأشجار التين ، والزيتون ، والرمان ، والشمام ، والبطيخ . ولكن لما كانت منطقة المدينة منطقة صخرية ، فإن حقولها قليلة . وكل حبوبياتها تأتي إليها من مصر ، والطائف ، والحجاز . وبها ورد أحمر ليس هناك شبيه له فى غيرها من البلاد . وعدها ؛ فهناك الزنبق ، والقرنفل ، والفل ، والياسمين ، والنجس ، والبنفسج ، وغير ذلك من الزهور الفواحة . وبلح المدينة ، وتمورها خاصة تتفوق على مثيلاتها فى شتى أنحاء المعمورة .

* * *